"آخر الأبواب الموصدة" على الطريق إلى القدس...

فاتنة أسامة الجمل

الليل بنسماته العليلة يداعب أغصان الشجر من حولي، والقمر بأشعته المضيئة يغمر هذا الكون في ليلة حفلت بالنجوم. ومع كل ما هيئته لي الطبيعة الساحرة في تلك اللحظات من أجواء مغرية للنوم العميق، ما زال عقلي متنبها. كلما حاولت أن أغفو قفزت صورتها إلى مخيلتي، جميلة، عذبة عريقة، تشع مبانيها بسهام الشمس النارية مع كل شروق، ويغمرها الذهب بردائه الحاني مع كل غروب. تأبى نفسي النوم، حتى إذا تزاحمت صورها في عقلي وروحي، نفض جسدي عنه التعب، وإذ بي أركض نحو المكتب، أنتزعه من بين أطنان الكتب المتناثرة هنا وهناك، وأعود أدراجي نحو السرير، أنسل تحت أغطيته. تلتهم أصابعي صفحاته وتنتقل جفوني بين كلماته وتطرب أذني للحن الخفي المنبعث من سطوره، إنه كتاب واحد، قهر التعب الجسدي، اقتحم القلب والروح ليغنيا على إيقاعاته أياما وليال، وحده "آخر الأبواب الموصدة" فعلها بتلك السرعة.

بصدمة نفسية وعاطفية ووطنية وإنسانية تستهل أبو ميالة نظمها الموسيقي لقطعة أدبية حافلة. صدمة تشعر القارىء بالتوتر منذ الصفحة الأولى: "لا تقولي زوجي، إنني لا أعرفه"، وتدفعه كالمجنون يقلب صفحات الكتاب، يلتهم الجمل، يبحث عن الجاني مستفز المشاعر مشحونا بالغضب الإنساني، باحثا عن بواعث هذه الجريمة النكراء. يستمر القارىء في البحث عن إجابات لأسئلته المتلاحقة كموج من رصاصات محمومة لا تدري إلى صدر من تتجه، ويظن بفطنته أنه لا بد من أن يعثر على ما يشفي غليله بين الكلمات، يستمر بالبحث والتنقيب، ولكن بلا جدوى، فمع تكشف مزيد من الأحداث، تنبثق مزيد من الأسئلة المربكة، حتى لينسى المرء الأسئلة التي استمر بالقراءة بحثا عنها أساسا، ويضيع في زحمة الأبواب الموصدة التي زخرت بها الرواية.

"اخر الأبواب الموصدة" تخبىء في طياتها – لمن لم يقرأها بعد- أبوابا عنونت بقضايا مختلفة، اندمجت بكل ألوانها في بوتقة إنسانية جميلة، من مشاعر الحب والتضحية إلى الغضب والتمرد إلى القهر والألم والسعادة، جسدت أنامل أبو ميالة بخفة ورشاقة نسيجا فلسطينيا عريقا، يكسوه المجد ويشع وجهه بعبق الأرض والوطن، وتنير صدره "القدس" بأثيرها ورونقها الأمومي الحالم. محطات عديدة بطقوس متنوعة، تشترك جميعها في مهمة واحدة، التغلغل هناك عميقا في قلب الفلسطيني وماضيه وتراثه وتاريخه وأهازيج جداتنا وزغاريدهن وحفر أزقة القدس وشوارعها وبيوتها وأفرانها في كل شريان فيه وكل مجرى للدم في عروقه، كي تصبَح على القدس وتمسَي في كل نبضة يعيشها الفلسطيني.

بعذوبة ألفاظها وتناغم سطورها ونضوج تجربتها، تدفع الكاتبة بالدموع في عين القارىء وقلبه، فينتفض جسده وتثور روحه عند المرور بتواريخ مفصلية في حياة القدس، تواريخ يعرفها المواطن الفلسطيني وقد شغلته أمور الدنيا عنها فتناسى ألمها، لكن هيهات. تمر تلك الأحداث في الرواية بطريقة تدفع بالجنون نحوك، فإحراق الأقصى وتهجير العرب من القدس وتهويدها وكل ضروب معاناة المواطن المقدسي، تقدمها أبو ميالة للفسطيني بقالب إنساني أدبي مفجع، يدفعك إلى محاولة التملص من ذكرى هذه الهزائم فتحاول الهرب من تلك الصفحات، ولكن فات الأوان، فقد اصطادتك بلاغة النص ورونق الكلمات وتدافع الأحداث، وبت عالقا في سطور هذه المقطوعة الأدبية الفردية وألحانها المقدسية الشيّقة.

لكل تلك الاعتبارات وأخرى كثيرة غيرها، كانت "آخر الأبواب الموصدة" أول عمل روائي أعاد لروحي وعقلي وقلبي ثقتها بالرواية العربية الحديثة، والأمل ببزوغ فجر جديد على عالمها بعد ما شهدته من ركود فكري مريع دفع بي إلى اليأس من النصوص العربية الروائية. ولكن ها أنا ذا مجددا أرى بصيص النور في ميلاد روائيين عرب، يحتل بينهم الروائيون الفلسطينيون الصدراة، مجددا....